أشراف الحجاز تحت الحكم المصري (١٨١٣-١٨٤٠م)

م.م عماد عبد العزيز يوسف
جامعة الموصل / كلية التربية الأساسية

تاريخ تسليم البحث : ٢٠٠٨/٩/١ ؛ تاريخ قبول النشر : ٢٠٠٨/١١/٢٠

ملخص البحث :

يتناول البحث أبعاد حكم الأشراف في الحجاز في غضون الفترة (١٨١٣-١٨٤٠م) وذلك بوصفها على جانب من الأهمية التاريخية ، إذ خضعت الحجاز إبان تلك الفترة تحت الحكم المصري . وضمن السيادة الرسمية للدولة العثمانية ، حيث أصبحت الحجاز اقليماً مصرياً ، يحكمها الوالي المصري المعين من قبل محمد علي باشا .

ويتضمن البحث معرفة سياسة حكم الأشراف في الحجاز ، فضلاً عن الخلافات التي كانت سمة ماثلة في علاقاتهم البينية ... كما تطرق البحث الى دور الأشراف في سياستهم العامة لمنطقة الحجاز ، فضلاً عن إيضاح طبيعة العلاقات التي كانت ماثلة بينهم وبين الولاة الذين تم تعيينهم من قبل الباب العالي في استانبول .

أصبح أشراف الحجاز خلال هذه الفترة يعينون ويبدلون حسب أهواء ورغبات محمد علي وسياسته هناك فكانت سلطتهم وهمية .

Ashraf of Hijaz Under Egyptian Rule 1813-1840 A.D.

Asst. Lect. Emad Abduazez Yousef
University of Mosul/ College of Basic Education

Abstract:

The research deals with the rule of Ashraf in Hijaz from 1813 to 1840 A.D. as it was considered so important where Hijaz was under the Egyptian rule, and within the Ottoman Sovereignty. So Hijaz became an Egyptian territory ruled by a governor appointed by Mahammed Ali Pasha.

The research sought to Know the policy of Ashraf rule in Hijaz as well as the disputes which dominated their relations.

It tackled the role of Ashraf in their public policy in ruling Hijaz and clarified the nature of their relations with the rulers appointed by AL Bab Al ali in Istanbul.

The Ashraf of Hijaz were appointed and replaced during this period by the whim and the will of Muhammad Ali Pasha, so their authority became unreal.

المقدمة :

تعد دراسة حكم الأشراف تحت الحكم المصري (١٨١٣-١٨٤٠) فترة ذات أهمية كبرى وتكمن أهمية هذه الفترة في معرفة مدى تأثير السيادة المصرية لأشراف الحجاز من حيث إنها تمثلت كحلقة وصل بين السلطة العثمانية وأشراف الحجاز .

وقد تضمن البحث محاولة لإعطاء صورة تاريخية لأهمية هذه الفترة في حكم الحجاز . كما تناول خطوات السيطرة المصرية على الحجاز ، وتضمن دراسة لأشراف الحجاز الذين تولوا الشرافة خلال فترة البحث .

تمهيد:

يعد البحث محاولة علمية لدراسة حكم الأشراف في الحجاز خلال فترة تبعيتها لمصر بين عامي ١٨١٣-١٨٤٠ . وتكمن أهمية هذه الدراسة أنها تمثل الفترة التي كان محمد علي باشا فيها والياً على مصر ومسئولاً عن تعيين الأشراف في الحجاز في بعض الفترات .

ولابد من الإشارة الى أن الحجاز دخلت تحت السيطرة العثمانية سلماً منذ عام ١٥١٧م بعد أن سيطر الدولة العثمانية على بلاد الشام ١٥١٦ ومصر عام ١٥١٧م . ذلك أن الحجاز كانت تحت السيادة الأسمية للمماليك الذين كانوا يحكمون مصر قبل السيطرة العثمانية وكانت الحجاز تتلقى من مصر كل عام كميات من الغلال والأموال توزع لفقراء الحرمين الشريفين والمرتبات لأشراف الحجاز .

رأى الشريف بركات الثاني (١٥١٢-١٥٢٤) أنه لا ضير من أن يتحول بولائه الى الدولة العثمانية بعد انهيار دولة المماليك ، لذلك أوفد ابنهُ (أبو نمي) الى مصر لمقابلة السلطان العثماني سليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠م) ليسلم له مفاتيح الحرمين الشريفين تعبيراً عن الولاء للسيادة العثمانية . فمنحهُ السلطان سليم تفويضاً بحكم مكة وصارت خطبة الجمعة باسم السلطان العثماني (سليم) . وبذلك احتفظت الدولة العثمانية بنظام الشرافة كما كان في أيام المماليك . وأصبح تعيين شريف مكة بتفويض من السلطان العثماني . حتى ظهور السيادة المصرية على عهد محمد علي باشا ١٨٠٥-١٨٤٩م .

توسعات محمد علي باشا[١] في شبه الجزيرة العربية :

لقد كان لمساعي محمد علي باشا في تطوير مصر وبناء جيش قوي واسطول بحري دورهُ في تحقيق طموحاته التوسعية في الجزيرة العربية وبلاد الشام حيث كان يبغي من ذلك العمل للسيطرة على مناطق واسعة في سبيل توسيع رقعة مصر الحديثة على حساب السيادة العثمانية[٢] .

وكان السلطان العثماني محمود الثاني (١٨٠٨-١٨٣٩) قد تأثر بشدة لفقدهِ لقب (حامي) أو خادم الحرمين الشريفين نتيجة إنهاء السيادة العثمانية على الحجاز على يد الدولة السعودية الأولى (١٧٤٧-١٨١٨م) وان هذا اللقب أصبح له في تلك الفترة أهمية كبيرة نظراً لضعف الدولة العثمانية فأصبحت بحاجة للاحتفاظ بهذا اللقب لتعزيز نفوذها الأدبي والمعنوي لدى الشعوب الإسلامية والأمم الغربية على حد سواء . ناهيك عن الدولة العثمانية تخشى من امتداد تأثير النفوذ السعودي والدعوة الإصلاحية السلفية (والذين يسمون بالوهابية من قبل أعدائهم نسبة الى المصلح محمد بن عبد الوهاب ١٧٤٣-١٧٩١م) الى مناطق هامة من الدولة العثمانية . وكذلك أهمية البحر الأحمر كموقع استراتيجي مهم وسيطرة الدولة السعودية الأولى على ساحله الشرقي بشكل رئيسي[٣] .

كان توجه محمد علي باشا للحجاز بأمر من الدولة العثمانية في عام ١٨١١م على عهد السلطان محمود الثاني[٤] .

وكان السبب في ذلك نمو خطر حركة الأخوان السلفية (الموحدين)[٥] المتعاونين مع آل سعود في الجزيرة وعدم استطاعة ولاة بغداد والشام العثمانيين من مواجهة الأخوان السلفية لذلك أوعزت السلطات العثمانية لمحمد علي باشا بالتحرك نحو الجزيرة العربية لمحاربة الوهابيين عام ١٨١١[٦] ذلك لأن الدولة العثمانية كانت منشغلة بمشاكلها الداخلية والخارجية ولم يكن باستطاعة الدولة التفرغ وتجهيز جيش لمحاربة الوهابيين لهذا السبب أمرت محمد علي بذلك الأمر[٧] .

وكان سبب استدعاء العثمانيين لمحمد علي لهذه المهمة هو أن سياسة محمد علي باشا أثارت مخاوف السلطان العثماني محمود الثاني فخشي من وجود الجيش المصري ففكر في استخدام هذا الجيش بضرب الوهابيين ، وقد استجاب محمد علي لمطلب السلطان العثماني لأنهُ خشي من التهرب من إطاعة السلطان في ذلك الوقت . كما أنهُ رأى في تلك المهمة فرصة لمد نفوذه وحكمه الى اقليم جديد (الحجاز) . وفرصة للتخلص من الجنود الألبانيين الذين كانوا يثيرون له المتاعب بتمردهم[٨] وكذلك رغبة محمد علي توسيع تجارة مصر والسيطرة على أكبر قدر ممكن من الطرق التجارية كما أن السيطرة على الجزيرة العربية ستعمل على فتح طموحاته نحو السيطرة على العراق وبلاد الشام[٩] .

انطلاق السيطرة المصرية نحو الحجاز :

كانت الخطوة الأولى لمحمد علي باشا في الاستعداد لمحاربة الوهابيين والسيطرة على الحجاز أن بعث برسالة ومندوب عنه الى شريف مكة (غالب بن مساعد ١٧٨٧-١٨١٣م) للتأكد من موالاتهِ لهُ وعندما وثق من ذلك وعلم أنهُ لم ينقذ الشريف للوهابيين إلا كرهاً عند ذلك جهز حملة عسكرية يبلغ تعدادهُ ٨٠٠٠ شخص بقيادة ابنهُ طوسون[١٠] .

بدأت تحركات الجيش المصري بحملة عسكرية استطاعت من الوصول الى ينبع على ساحل البحر الأحمر عام ١٨١١م واتخذها قاعدة لعملياته حيث لم يلق طوسون بن محمد علي بها أدنى مقاومة لأن شريف مكة غالب سلمها طوع إرادتهِ ومن ثم سار نحو المدينة[١١] . إلا ان أبناء عبد العزيز بن محمد بن سعود (عبد الله وفيصل) استطاعا أن يتغلبا على طوسون وإيقاف جيشهِ دون تحرك عند (الجديدة) خاصة وان الحر الشديد أثر على الجيش المصري[١٢] .

بدأت خسارة طوسون بن محمد علي تؤثر على معنويات الجيش حيث أرسل محمد علي ابنهُ الآخر إبراهيم باشا (١٧٨٩-١٨٤٨م) مع حملة كبيرة[١٣] إلا ان الوهابيين كانوا يعدون بالآلاف ويتفوقون على القوات المصرية في العدد ولكن الأخيرة تتفوق عليهم بالأسلحة والمدفعية ومع ذلك عمل الجيش المصري على بث روح الشقاق لدى الوهابيين باستمالة بعض شيوخ القبائل البدوية الى جانبه ومع وصول نجدات إليه من مصر ، وتمكن القوات المصرية ان يسيطروا على المدينة المنورة عام ١٨١٢م[١٤] ثم تقدموا وسيطروا على مكة المكرمة عام ١٨١٣م ثم أجزاء واسعة من الحجاز منها مدينتا الطائف وجدة وبذلك أصبحت الحجاز بأكملها تحت السيطرة المصرية[١٥] .

كان دخول محمد علي باشا الحجاز في عام ١٨١٣ وقد كانت آنذاك تحت حكم الشريف غالب بن مساعد[١٦] . حيث استقبل الأخير محمد علي باشا استقبالاً لائقاً وبالغ في ضيافتهِ إلا أنهُ كان حذراً في تعاملهِ معه[١٧] . حتى أنهُ طلب من محمد علي أن يأمر جيشهُ الزاحف من مصر إذا وصلت قطعاته جدة عن طريق البحر الأحمر أن تسلك طريق الطائف دون المرور بمكة كي لا يحصل للناس ضيق في الماء لكثرة الحجاج الوافدين في ذلك العام[١٨] .

ويبدو أن هذا السبب غير مباشر والسبب الرئيس لمطلب الشريف غالب هو تخوفه من وجود جيش كبير في مكة تابع لمحمد علي باشا . وقد وافق الأخير على طلب الشريف .

كان محمد علي باشا مأموراً من السلطات العثمانية بعزل الشريف غالب إلا أنهُ أراد أن يعمل مكيدة لعزلهِ بواسطة ولدهِ طوسون وليس من جانبهِ[١٩] .

لذلك شاع في مكة أنهُ على خلاف مع ابنهِ طوسون وخرج الأخير الى جدة وكتب من هناك الى الشريف غالب طالباً منهُ أن يتوسط لدى والدهِ للصلح وفعلاً توسط الشريف وأرسل

الى طوسون بقبول والدهِ الصلح ، وعند ما دخل طوسون ومعهُ جيشهُ مكة جاء إليه الشريف غالب ليأخذهُ عند والدهِ محمد علي باشا فقبل طوسون يد الشريف وتحدث معهُ لفترة من الزمن ثم دخل أحد كبار عسكر طوسون وألقى القبض على الشريف غالب وبينوا للشريف أنهُ مطلوب لدى السلطات العثمانية[٢٠] .

واستطاع محمد علي باشا وابنهُ طوسون من خديعة أولاد الشريف غالب الثلاثة وجاءوا بهم الى مكان تواجد والدهم وأخبروهم أن السلطان العثماني (محمود الثاني ١٨١٨-١٨٣٩م) طلب حضور والدهم الى استانبول وآنذاك عين محمد علي باشا الشريف يحيى بن سرور بن مساعد (١٨١٣-١٨٢٧) لشرافة الحجاز ، وهو ابن أخ الشريف غالب بن مساعد وذلك عام ١٨١٣م[٢١] .

أما بالنسبة لمصير الشريف غالب بن مساعد وأولادهِ فإنهم نقلوا الى مصر بطلب من محمد علي باشا وبقوا في مصر لفترة من الزمن ثم طلب السلطات العثمانية مجي الشريف غالب الى سلانيك للإقامة فيها الى أن توفي عام ١٨١٥م[٢٢] .

الأشراف الذين تولوا الشرافة خلال السيطرة المصرية (١٨١٣-١٨٤٠) :

تولى ، خلال هذه الفترة ، الشرافة في الحجاز كلاً من الشريف يحيى بن سرور (١٨١٣-١٨٢٧) . ومن بعدهِ الشريف محمد بن عون (١٨٢٧-١٨٥١م)[٢٣] .

شرافة يحيى بن سرور (١٨١٣-١٨٢٧) :

تولى الشريف يحيى بن سرور الشرافة بأمر من والي مصر محمد علي باشا في تشرين الثاني من عام ١٨١٣[٢٤] . أي بعد طرد الوهابيين من الحجاز وسيطرة والي مصر عليها وبناءً على طلب الأخير أرسلت السلطة العثمانية فرمان التعيين في شباط ١٨١٤ شريفاً لمكة (يحيى بن سرور) بدلاً من الشريف السابق غالب بن مساعد[٢٥] . وقد كان محمد علي يبغي من هذا العمل تعيين شريف يفيدهُ في سياسته وكان الشريف يحيى يمتاز بالبساطة والطيبة ولهذا السبب أراد والي مصر تعيينهُ بدلاً من أخيه عبد الله المعروف بنشاطهِ وحيويتهِ[٢٦] .

امتازت سياسة السلطة العثمانية مع الشريف يحيى بإغداق العطايا والمبالغ عليه حيث ازدادت المبالغ المرسلة سنوياً من مصر الى الحجاز بناءً على أمر صادر من السلطة العثمانية لوالي مصر كما وخصصت رواتب ومخصصات من كمرك جدة لإتباع الشريف يحيى وقد عملت السلطة العثمانية على تلبية كل طلبات الشريف يحيى وإرسال ما يريدهُ عن طريق مصر ويذكر أن السلطة العثمانية أرسلت لهُ ١٠٠٠ قطعة نقدية ذهبية عام ١٨١٦م ، إلا أن

هذهِ المعاملة الجيدة والحسنة من قبل السلطة العثمانية قابلها الشريف يحيى في النهاية بغطرستهِ ضد سلطة العثمانيين[٢٧] .

مشاكل الشريف يحيى بن سرور :

أولاً. وقع خلاف بين الشريف يحيى وأخيهِ عبد الله حيث كان الأخير لا يرضى بشرافة أخيهِ ويريدها لهُ لأنهُ أكبر منهُ سناً . وتكلم مع أخيه بغلظة عند ذلك ذهب الشريف يحيى الى محمد علي باشا وحدث لهُ ما حصل من أخيهِ لذلك أمر محمد علي باشا بنفي عبد الله بن سرور الى مصر[٢٨] .

ثانياً. كان للشريف يحيى بن سرور مشاكل مع بعض الشخصيات الحاكمة أمثال أحمد باشا يكن حاكم ولاية الحجاز . وسبب هذهِ المشاكل بين الطرفين يعود :

١. تجاهل أحمد باشا للشريف يحيى بن سرور في كثير من الأمور وخاصة المتعلقة بشؤون الأشراف .
٢. تقريب أحمد باشا يكن للشريف شنبر بن مبارك المنعمي[٢٩] الذي كان على خلاف مستمر مع الشريف يحيى . وتقريب العربان خاصة بعد أن عين محمد علي باشا الشريف شنبر مسئولاً قبائل بادية الحجاز لجهة شنبر بن مبارك الأمر الذي أدى الى زيادة الخلاف بين الشريف يحيى وشنبر . ونتيجة لهذا انقسمت القبائل في الحجاز بين هذا الشريف (يحيى بن سرور) وبين الشريف شنبر[٣٠] .

ثالثاً. وكان من مشاكل الشريف يحيى خلافهُ مع الشريف شنبر بن مبارك المنعمي[٣١] ومما زاد الخلاف بين الطرفين ، العلاقة الوطيدة التي كانت بين شنبر المنعمي والشيخ أحمد تركي[٣٢] . وكان الشريف شنبر البالغ من العمر ثمانين عاماً قد كسب محبة واحترام الأشراف وثقة والي مصر محمد علي باشا وكان على خلاف مع الشريف يحيى بسبب منصب الشرافة[٣٣] وبسبب هذا الخلاف توجه الشريف يحيى مع جماعتهِ الى الحرم الشريف وقتل الشريف يحيى الشريف شنبر وهو يؤدي صلاة المغرب عند باب الصفا في عام ١٨٢٦م[٣٤] .

تطورت الأحداث في الحجاز بعد مقتل شنبر المنعمي ، حيث أرسل احمد باشا الى محمد علي باشا بما حصل وأن الشريف يحيى قد قتل شنبر المنعمي وأراد أحمد باشا مقابلة الشريف يحيى إلا أن الشريف يحيى كان يريد السفر الى مصر . وأوضح أنهُ هو الذي قتل شنبر . آنذاك أرسل أحمد باشا لمحمد علي أنهُ يريد ان يسند الشرافة لعبد المطلب بن الشريف غالب لكن محمد علي باشا أبطأ في اتخاذ قرارهِ[٣٥] وبسبب تأخر جواب محمد علي نصب أحمد باشا عبد المطلب شريفاً لمكة بعد أن أظهر فرماناً لبعض وجهاء الحجاز بذلك . وجاءوا لتهنئة

الشريف عبد المطلب عند ذلك جاءت رسالة من محمد علي باشا يبين فيها أنــهُ يستحــسن أن ينصبوا الشريف محمد بن عبد المعين بن عون للشرافة وكان محمد بن عبد المعين يقيم فــي مصر . وأرسل محمد علي يطلب فرماناً من السلطان محمود الثاني بذلك[٣٦] .

أثناء ذلك وصلت الأخبار الى الحجاز فوقع الخلاف بين أحمد باشا وعبد المطلب وكانــا آنذاك بالطائف يجمعان القبائل لمحاربة الشريف يحيى بــن ســرور إلا أن تطــور الأحــداث ووصول خبر تولي محمد بن عبد المعين الشرافة جعل هناك اتفاقية بين يحيى بن سرور وعبد المطلب لمحاربة محمد بن عبد المعين أثناء ذلك جاءت كتب من محمد بن عبد المعــين الــى الشريف يحيى بن سرور وعبد المطلب يطلب فيها أن يرجعا عما يريدان فعلهُ ويعرض لهــم الصلح وأنهُ سيحصل لهم الإقامة التي يريدها من محمد علي باشا . عند ذلك استحسن الشريف يحيى الصلح إلا ان عبد المطلب لم يرض بذلك بل أصر على القتال في البداية حتى أنهُ منــع يحيى بن سرور من ان يتصالح بسبب كثرة قواتهِ على قــوات يحيــى . وتحــصنوا آنــذاك بالطائف[٣٧] . وعندما طال الحصار خرج عبد المطلب ويحيى ومن معهما وتقابلوا مع محمــد بن عبد المعين وأُخذت بينهم عهود ومواثيق واتفقوا على الصلح ورجع عبد المطلب ويحيى بن سرور الى الطائف وكان آنذاك عام ١٨٢٧م[٣٨] ، الباقي من تطور الأحداث سنذكره لاحقاً في شرافة محمد بن عون .

عزل الشريف يحيى بن سرور :

عُزل الشريف يحيى بن سرور بسبب قتلهِ الشريف شنبر بن مبارك المنعمي ذلك لأنــهُ بعد قتلهِ لشنبر بعث أحمد باشا –قائد حامية مكة– الى محمد علي باشا يبين لهُ كيــف حــدث عملية قتل الشريف شنبر من قبل الشريف يحيى لذلك بعث محمد علي باشا بذلك الى استانبول يعلمهم بالأمر وبناءاً على هذا الأمر عزل الشريف يحيى في أيار عام ١٨٢٧م[٣٩] .

شرافة الشريف محمد بن عبد المعين بن عون ١٨٢٧ـ١٨٥١م :

كان محمد بن عون نزيلاً عند محمد علي في مصر في عز وإكرام وأما سبب وجــودهِ في مصر هو أن محمد علي لما دخل الحجاز جعل محمد بن عون أميراً على منطقة تربة ثــم على قبائل عسير والقبائل والقرى التابعة لعسير وبعد سنين من إمارتهِ حدث خلاف بينهُ وبينهم فكتب محمد بن عون لمحمد علي بذلك يطلب المساعدة وتجهيــزهِ بعــساكر لمحاربــة قبائــل عسير . وقد أرسل محمد علي عساكر كثيرة العدد لهُ لمحاربة قبائل عسير إلا أن محمــد بــن عون انهزم هو والعساكر أمام القوات العسيرية . وبسبب خسارتهِ ارتحل الى مــصر ليعــيش هناك قريباً من محمد علي[٤٠] .

وبقي في مصر حتى ترشيحهِ من قبل محمد علي لشرافة الحجاز بعد قيام الشريف يحيى بن مسرور بقتل الشريف شنبر المنعمي[٤١] .

بعد عزل الشريف يحيى اتفق الشرفاء وقاضي مكة المكرمة وقائد حامية مكة أحمد باشا على تنصيب الشريف عبد المطلب بن الشريف غالب أميراً لمكة وكالة وكتبوا بذلك لمحمد علي باشا إلا أن الأخير لم يوافق على ذلك ولم يرشح أحد غيرهُ وإنما بعث بذلك يخبر الباب العالي[٤٢] . وأثناء ذلك اقترب موسم الحج ويجب أن يكون هناك شريف يتولى الإمارة بشكل رسمي لذلك أرسلت الحكومة العثمانية فرمان تعيين أمير مكة المكرمة في أب ١٨٢٧م ولكن أبقت مكان اسم الشريف الذي سيعين خالياً الى محمد علي باشا لكي هو الذي يختار الشريف الذي يتولى حكم الحجاز (مكة المكرمة)[٤٣] عند ذلك اختار محمد علي باشا الشريف محمد بن عون ليتولى منصب أمير مكة[٤٤] .

ومحمد بن عون هو من فرع الشرفاء العبادلة (نسبة الى جدهم الأكبر عبد الله) الذين كانوا يقيمون آنذاك في مصر[٤٥] .

إدارة الشريف محمد بن عون لولاية الحجاز :

١. كان مجلس الشريف محمد دائماً منتظماً بالعلماء والأدباء وطلبة العلم وتجري فيه المذاكرات في كثير من الفنون ومدحهُ كثير من الشعراء بالقصائد فأغدق عليهم العطايا .
٢. غزا غزوات بناصية الشرق وتربة ورنية وبيشة وانتصر في جميع الغزوات .
٣. في سنة ١٨٣٣م صدر الأمر من محمد علي باشا بمحاربة عسير وقد تجهز جيش كان على أحمد باشا أن يمدهم بالمساعدات إلا أنهُ قصر في عمله . وقد أنكر التقصير وبين ان الشريف محمد بن عون هو الذي قصر في عملهِ . عند ذلك طلبهما محمد علي باشا ليتحاكما في ذلك . وقد ذهبا الى مصر وترك محمد بن عون وكيلاً عنهُ الشريف مبارك بن عبد الله الحمودي العبدلي وأبقى أحمد باشا وكيلاً عنهُ امير اللواء أمين بك[٤٦] . وبعد وصول الشريف محمد وأحمد باشا الى مصر تحاكما وظهر أن سبب التقصير هو من جانب أحمد باشا . عند ذلك أمر محمد علي باشا الشريف محمد بن عون بالعودة الى مكة وبقاء أحمد باشا إلا أن أحمد باشا توسط عند الكثيرين وأخيراً طلب من الشريف محمد بن عون أن يتوسط لدى محمد علي وأنهُ سوف يستطيع من أن يحرز الانتصار على القوات العسيرية في غضون ثلاثة أشهر[٤٧] . فأوضح الشريف محمد الأمر لمحمد علي وفي البداية لم يوافق محمد علي على ذلك الأمر وفي نهاية الأمر قال إنني أوافق على أن تبقى

أنت (الشريف محمد) عندي خلال هذهِ المدة (ثلاثة أشهر) فوافق الشريف محمد على ذلك الاقتراح بعد ذلك خرج أحمد باشا ومعهُ الشريف منصور بن زيد الشنبري ، الذي كان متولياً على إمارة غامد وزهران ، هما قبيلتان من أزد يقترن اسماهما معاً دائماً وتشتركان في الديار وإمارتهما واحدة ، قاعدتهما الباحة على مقربة مئتين وعشرين ميلاً من جنوب الطائف على ظهر السراه ، في بعض السنين ويريد الرجوع الى إمارتهِ ، كما كان أحمد باشا معتمداً على سلطان بن عبدة العسيري الذي كان أميراً على قبيلة من قبائل عسير يقال لهم علكم وكان قد وقع بينهُ وبين أمير عسير خلاف فأراد أن يقتلهُ فهرب وجاء الى مكة ملتجأ قبل هذهِ الوقائع فسعى لهُ أحمد باشا عند محمد علي باشا في ترتيب معاش جزيل لهُ . فبقي بمكة مصاحباً لأحمد باشا ويداهن الشريف محمد في الظاهر وميله في الباطن لأحمد باشا . وكان يعدهُ أن قبائل عسير لا تخرج عن طوعهِ وأنهُ إذا توجه مع أحمد باشا يملكهُ بلاد عسير . وعندما رجع أحمد باشا من مصر أبقى أمين بك قائماً مقامهُ وتوجه هو بالعساكر الى بلاد غامد وزهران ومعهُ الشريف منصور بن زيد ومجموعة من الأشراف وسلطان بن عبدة العسيري . وحدث وقائع كثيرة بين أشراف الحجاز والعسيرين وكانت النتيجة الانتصار مرة لأهل الحجاز وأخرى للعسيرين واستمر الحال كذلك وكل هذهِ المدة والشريف محمد بن عون في مصر حتى أنهُ في سنة ١٨٣٨ ولد لهُ في مصر ولدهُ حسين[٤٨] .

وعندما دخل سنة ١٨٤٠م انعقد الصلح بين السلطان العثماني عبد المجيد الأول (١٨٣٩-١٨٦٠م) ومحمد علي باشا وكان من بين شروط الصلح (معاهدة لندن ١٨٤٠)[٤٩] أن يترك محمد علي باشا الحجاز والشام لتعود للسلطة المركزية العثمانية ويبقى لهُ ولأولادهِ ملك مصر وأعمالها عند ذلك أذن محمد علي باشا للشريف محمد بالعودة الى مكة[٥٠] .

المشاكل التي واجهت الشريف محمد بن عبد المعين بن عون :

واجه الشريف محمد بن عون بعض المشاكل منذ بداية توليه الشرافة بل منذ وصولهِ الى مكة المكرمة حيث تمثلت هذهِ المشكلة بموقف الشريف عبد المطلب بن الشريف غالب حيث كان الأخير يتأمل في تولي الإمارة إلا أنهُ فوجئ بتولية محمد بن عون بإيحاء من محمد علي باشا حيث عمل الشريف عبد المطلب فور سماعهِ بتعيين محمد بن عون بتحريض

شريف مكة السابق يحيى بن سرور كما أنهُ جهز قواتاً من البدو يقصد بها السيطرة على مكة قبل وصول الشريف محمد بن عون[٥١] إلا أنهُ لم يستطع أن يحقق هدفهُ بسبب وصول الشريف عون ومعهُ قوات مصرية عن طريق الينبع لمساندته وتنصيبهِ شريفاً لمكة . وقد أراد الشريف محمد بن عون ملاحقة الشريف عبد المطلب حيث لحقهُ مع قواتهِ المصرية الى الطائف والحق به الهزيمة وبشريف مكة السابق ووضع يده على أموالهم الموجودة في الطائف ثم لحقهم في منطقة العسير وبعد فترة من الزمن ترك الشريف محمد بن عون مسألة ملاحقتهِ . ثم رجع الشريف عبد المطلب الى مكة المكرمة بوساطة من أمير الحج رؤوف باشا[٥٢] عند ذلك تخوف والي مصر محمد علي باشا من حدوث مشاكل بين الطرفين (أي الشريف محمد والشريف عبد المطلب) لذلك دبر محاولة لاغتيال عبد المطلب إلا أن الأخير استطاع أن يهرب الى اسطنبول ويتخلص من مسألة اغتياله[٥٣] وقد أرادت السلطات العثمانية إجراء مصالحة بين الطرفين وذلك عندما أرسلت الى محمد علي باشا بإجراء مصالحة وبوساطة قائد حامية مكة وإسكان عبد المطلب بالطائف أو جدة أو الشام إلا أن محمد علي باشا أرسل الى السلطات العثمانية ان مجيء عبد المطلب سيعمل على إحداث مشاكل واضطرابات في مكة واقترح للسلطات العثمانية إبقاء عبد المطلب في إحدى مناطق الروميللي أو الأناضول وفعلاً أسكنت السلطات العثمانية الشريف عبد المطلب في بورصة مع تخصيص راتب شهري لهُ مقدارهُ ٣٠,٠٠٠ قرش[٥٤] .

عزل الشريف محمد بن عون :

بقي الشريف محمد بن عون شريفاً لمكة لفترة طويلة من الزمن . حيث عندها ساءت علاقة محمد علي باشا بالسلطة العثمانية بسبب تطلعات محمد علي باشا بالاستقلال والتوجه للسيطرة على بعض الولايات وحتى أنهُ أراد الدخول في حرب مع السلطة المركزية عند ذلك أرسلت السلطات العثمانية أمراً بعزل الشريف محمد بن عون عن منصبه لأنهُ من أتباع محمد علي باشا وتنصيب الشريف عبد المطلب بدلاً عنهُ إلا أن الأخير لم يستطع الوصول الى مكة بسبب التمرد[٥٥] وكذلك فإن الشريف محمد بن عون بقي في مكة حتى بعد تقليص نفوذ محمد علي باشا وإبقاء نفوذهِ فقط على مصر عام ١٨٤٠ حسب معاهدة لندن[٥٦] حيث بقي الشريف محمد بن عون حتى سنة ١٨٥١م عندما جاء كتاب عزلهِ في تلك السنة . وقضى بقية حياتهِ في اسطنبول حتى وفاتهِ في آذار ١٨٥٨م[٥٧] .

الخاتمة:

يتضح في ضوء استقراء البحث ، وجود صراع ماثل على الدوام بين الأشراف في الحجاز بغية الوصول الى منصب الشرافة الذي طالما كان هدفا حيوياً سعى الأشراف الى تسنمه الى الحد الذي اعتمد فيه القتل وسيلة للوصول اليه .

كما تبين من خلال البحث ، ان الاسباب التي دفعت الدولة العثمانية في تشجيع محمد علي باشا للسيطرة على الحجاز كانت تكمن في خشية الدولة العثمانية ، والتي بدأت معالم الضعف واضحة فيها ، من استخدام محمد علي باشا جيشه الجديد في نوع اسلحته وبرامجه القتالية ضدها ، ووفقا لذلك وجهت الدولة العثمانية محمد علي باشا نحو الحجاز لقتال حركة الاخوان السلفية (الوهابية) التي طالما شكلت مصدر خطورة على الدولة العثمانية .

وأظهر البحث ايضا ، حرص اشراف الحجاز على اعتماد موازنة ايجابية مع العثمانيين ومحمد علي باشا على حد سواء حفاظاً على مكانته في شرافة الأحجاز . ولكن الصراع العثماني مع محمد علي باشا الذي انبثق واضحا من خلال سياسة محمد علي باشا الذي حاول من السيطرة على أغلب المناطق التابعة للدولة العثمانية ، ادى الى انحسار نفوذ الاشراف السياسي في الحجاز ، وخصوصا بعد اقتصار نفوذ محمد علي باشا على مصر بموجب معاهدة لندن ١٨٤٠ .

هوامش البحث :

(١) مواليد مدينة قولة الألبانية ١٧٦٩ وهو بن ابراهيم أغا رئيس حراس الطريق . وكان محمد علي الابن السابع عشر لأبويهِ وهو الوحيد الذي بقي على قيد الحياة . وقد توفي والدهُ وهو في الرابعة من عمرهِ فكفلهُ عمهُ طوسون وتوفي هذا بعد مدة يسيرة فكفلهُ أحد أصدقاء والدهِ . ينظر أمين سعيد ، تاريخ الاستعمار الانجليزي في بلاد العرب ، (القاهرة : د.ت) ، ص٦٩ .

(٢) لوتسكي ، تاريخ الأقطار العربية الحديث ، ط٩ (بيروت : ٢٠٠٧) ، ص ص١٠٢-١٠٣ ؛ ابراهيم خليل العلاف ، الخليج العربي دراسات في التاريخ والسياسة والتعليم ، (جامعة الموصل : ٢٠٠٧) ص٧١ ؛ Saleh Muhamed AL-Amr, The Hijaz under the Ottman Rule 1869-1914, (London : 1978) p, 51.

(٣) سليمان الغنام ، سياسة محمد علي باشا التوسعية في الجزيرة العربية والسودان واليونان وسوريا (١٨١١-١٨٤٠) قراءة جديدة ، ط٢ (بيروت : ٢٠٠٤) ، ص ص٣٩-٤٠ .

(٤) جاكلين بيرين ، اكتشاف جزيرة العرب ، خمسة قرون من المغامرة والحلم ، ترجمة قدر قلعجي ، (بيروت : د.ت) ، ص٢٣١ ؛ عمر الاسكندري وسليم حسن ، تاريخ مصر من الفتح العثماني (الى قبيل الوقت الحاضر) ، (القاهرة : ١٩٩٠) ، ص١٢٩ ؛ جلال يحيى ، البحر الأحمر والاستعمار ، (القاهرة : ١٩٦٢) ، ص٥٠ .

(٥) حركة دينية انتشرت في شبه الجزيرة العربية في منتصف القرن الثامن عشر ومؤسسها هو محمد بن عبد الوهاب الذي درس في دمشق وبغداد وقد نادى بالعودة الى أصول الدين القويم القائمة على التوحيد والتقشف ، ينظر جاد طه ، سياسة بريطانيا في جنوب الجزيرة العربية ، ط٣ (القاهرة : ١٩٦٩) ، ص٤٩ ؛ سعيد ، المصدر السابق ، ص ص ٣٩-٤٠ ؛ لوتسكي ، المصدر السابق ، ص ص ٩٠-٩١ .

(٦) عبد الكريم رافق ، العرب والعثمانيون ١٥١٦-١٩١٦ ، (دمشق : ١٩٧٤) ، ص٣٩٧ ؛ محمد مرسي عبد الله ، إمارات الساحل وعمان والدولة السعودية الأولى ١٧٩٣-١٨١٨ ، (د.م : د.ت) ، ص٢٤٧ .

(٧) جليلبير سينويه ، الفرعون الأخير محمد علي بين ١٧٧٠-١٨٤٩ ، ترجمة حافظ الجمالي ، (دمشق : ٢٠٠٥) ، ص١٣٩ ؛ عبد الكريم محمود غرايبة ، تاريخ العرب الحديث ، (بيروت : ١٩٨٤) ، ص٩٠ ؛ راغب السرجاني ، الموسوعة الميسرة في التاريخ الإسلامي ، ط٧ (القاهرة : ٢٠٠٧) ، ج٢ ، ص١٩٨ ؛ كليب سعود الفواز ، المراسلات المتبادلة بين الشريف حسين والعثمانيين ١٩٠٨-١٩١٨ دراسة تحليلية (بغداد : د.ت) ، ص٣٤ ؛ لوتسكي ، المصدر السابق ، ص٩٧ .

(٨) جميل بيضون وآخرون ، تاريخ العرب الحديث ، (عمان : ١٩٩١) ، ص٩١ .

(٩) لوتسكي ، المصدر السابق ، ص٩٧ ؛ سينويه ، المصدر السابق ، ص١٣٩ ؛ غرايبة ، المصدر السابق ، ص٩٠ ، السرجاني ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص١٩٨ ؛ الفواز ، المصدر السابق ، ص٣٤ .

(١٠) اسماعيل أحمد ياغي ومحمود شاكر ، تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر ، ط٥ (الرياض : ٢٠٠٦) ، ج١ ، ص٧٠ ؛ اسماعيل أحمد ياغي ، تاريخ العالم العربي المعاصر ، ط٢ ، (الرياض : ٢٠٠٤) ، ص٢٨ ؛ الاسكندري وحسن ، المصدر السابق ، ص١٢٩ .

(١١) عبد الله ، المصدر السابق ، ص٢٤٧ ؛ محمد فريد وجدي ، دائرة معارف القرن الرابع عشر – العشرين ، مج٩ ، ط٤ (القاهرة : ١٩٦٧) ، ص١٤٠ .

(١٢) جورج يانج ، تاريخ مصر من عهد المماليك الى نهاية حكم اسماعيل ، ترجمة علي احمد شكري ، (القاهرة : ١٩٩٠) ، ص١١١ ؛ مديحة أحمد درويش ، تاريخ الدولة السعودية حتى الربع الأول من القرن العشرين ، (جدة : ١٩٨٠) ، ص٥٢ ؛ عبد الله ، المصدر السابق ، ص٢٤٧ .

(١٣) رأفت الشيخ ، في تاريخ العرب الحديث ، ط٣ (القاهرة : ١٩٨٠) ، ص٢٠٨ ؛ لوتسكي ، المصدر السابق ، ص١٠٤ .

(١٤) أحمد بن زيني دحلان ، تاريخ أشراف الحجاز ١٨٤٠-١٨٨٣ خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام ، تحقيق محمد أمين توفيق ، (بيروت : ١٩٩٣) ، ص٢١ ؛ كنث وليمز ، ابن سعود سيد نجد وملك الحجاز ، ترجمة كامل صموئيل مسيحه ، (بيروت : ١٩٣٤) ، ص٤٠ ؛ سيار كوكب علي الجميل ، تكوين العرب الحديث ١٥١٦-١٩١٦ ، (جامعة الموصل : ١٩٩١) ، ص٢٧٢ .

(١٥) عمر عبد العزيز عمر ، دراسات في تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، (بيروت : ١٩٧٥) ، ص١٦٨ ؛ عبد المتعال الصعيدي ، المجددون في الإسلام من القرن الأول الى الرابع عشر ١٠٠هـ-١٣٧٠هـ ، (القاهرة : د.ت) ، ص٤٨١ .

(١٦) هو غالب بن مساعد بن سعيد بن سعد بن زيد بن محسن بن حسين بن حسن أبي نمي . تولى إمارة مكة بعد أن تنازل لهُ عنها أخوهُ الشريف عبد المعين عام ١٧٨٧ وبقي في إمارته حتى عام ١٨١٣ حيث عزل وأرسلهُ محمد علي باشا بعد ذلك الى مصر ثم انتقل الى سلانيك حيث توفي هناك عام ١٨١٥م . ينظر : خليل مردم بك ، أعيان القرن الثالث عشر في الفكر والسياسة والاجتماع ، ط٢ (بيروت : ١٩٧٧) ، ص ص١٢٧-١٣١ .

(١٧) عبد الله ، المصدر السابق ، ص ص٢٤٩-٢٥٠ ، وجدي ، المصدر السابق ، ص١٤١ .

(١٨) أحمد بن السيد زيني دحلان ، أمراء البلد الحرام منذ أولهم في عهد الرسول ﷺ حتى الشريف الحسين بن علي ، ط٢ (بيروت : ١٩٨١) ، ص٣٣٠ .

(١٩) زكي فهمي ، صفوة العصر في تاريخ ورسوم مشاهير رجال مصر ، (القاهرة : ١٩٩٥) ، ص٣٤ .

(٢٠) مردم بك ، المصدر السابق ، ص١٣٠ .

(٢١) المصدر نفسهُ ، ص١٣١ .

(٢٢) عبد الله ، المصدر السابق ، ص٢٥٠ ؛ دحلان ، تاريخ ، ص٢٢ .

(٢٣) سليمان موسى ، الحسين بن علي والثورة العربية الكبرى ، ط٢ ، (عمان : ١٩٩٢) ، ص ص٢٠-٢١ .

(٢٤) عبد الرؤوف سنو ، النزعات الكيانية الاسلامية في الدولة العثمانية ١٨٧٧-١٨٨١ بلاد الشام-الحجاز-كردستان-ألبانيا ، (بيروت : ١٩٩٨) ، ص٩١ .

(٢٥) مردم بك ، المصدر السابق ، ص١٣١ .

(٢٦) سيار الجميل ، بقايا وجذور التكوين العربي الحديث ، (عمان : ١٩٩٧) ، ص٢٥٢ .

(٢٧) اسماعيل حقي أوزون جارشلي ، أمراء مكة المكرمة في العهد العثماني ، ترجمة خليل علي مراد ، (البصرة : ١٩٨٥) ، ص ص١٥٨-١٥٩ .

(٢٨) الجميل ، بقايا ، ص٢٥٣ .

(٢٩) كان مشهوراً بالعقل والديانة وحسن التدبير وقد اعتمد محمد علي عليه في تدبير أمور الإشراف وقد توصل الى هذه المكانة والثقة عند محمد علي عن طريق صديقهِ أحمد تركي الذي لازم محمد علي أثناء وجودهِ بالحجاز وصار محل ثقتهِ وكان اعتماد محمد علي على الشريف شنبر في كثير من الأمور سبباً في وقوع العداوة بينهُ وبين الشريف يحيى بن سرور الى أن قتلهُ . ينظر : عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، محمد علي وشبه الجزيرة العربية ١٢٣٤-١٢٥٦هـ/١٨١٩-١٨٤٠م ، (القاهرة : ١٩٨١) ، ج٢ ، ص٣٦ .

(٣٠) المصدر نفسه ، ج٢ ، ص ص٣٦-٣٧ ؛ أحمد السباعي ، تاريخ مكة دراسات في السياسة والعلم والاجتماع والعمران ، (مكة المكرمة : ١٩٩٩) ج٢ ، ص٥٨١ .

(٣١) مردم بك ، المصدر السابق ، ص١٣٢ .

(٣٢) كان مطوفاً امتاز برجاحة عقلهِ ومعرفتهِ وكان على دراية واسعة بأحوال الحجاز كان يعمل أولا في خدمة الشريف غالب وكان يعتمد عليه في أمورهِ ويرسلهُ الى دار السلطنة عندما يريد أمراً من هناك فلما جاء محمد علي الى الحجاز قربه إليه وجعلهُ ملازماً له وكان يعتمد عليهِ ويستشيرهُ في كثير من الأمور وجعلهُ محل ثقتهِ بل أنهُ أمر حسن باشا قائمقامهِ أن يستشيرهُ في أمور الإدارة الخاصة بالحجاز وكان أحمد تركي صديقاً للشريف شنبر فزكاهُ عند محمد علي وأحمد يكن وجعلهما يعتمدان عليه في كثير من أمور الأشراف وما يتعلق بهم وقد توفي أحمد تركي عام ١٨٢٠م . ينظر : عبد الرحيم ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص٣٧ .

(٣٣) جارشلي ، المصدر السابق ، ص ص١٥٩-١٦٠ .

(٣٤) رجب حراز ، الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب ١٨٤٠-١٩٠٩ ، (القاهرة : ١٩٧٠) ، ص١٠٧ ؛ السباعي ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص٥٨٢ .

(٣٥) مردم بك ، المصدر السابق ، ص١٣٢ .

(٣٦) المصدر نفسه ، ص١٣٣ .

(٣٧) المصدر نفسه ، ص١٣٥ .

(٣٨) عاتق بن غيث البلادي ، الإشراف على تاريخ الأشراف ، (بيروت : ٢٠٠٢) ، ج٢ ، ص٥٣٩ .

(٣٩) جارشلي ، المصدر السابق ، ص ص١٥٩-١٦١ .

(٤٠) مردم بك ، المصدر السابق ، ص١٣٤ .

(٤١) موسى ، المصدر السابق ، ص٢٠ .

(٤٢) جارشلي ، المصدر السابق ، ص١٦١ .

(43) AL-Amr. Op. cit. p52.

(٤٤) سنو ، المصدر السابق ، ص٨٨ .

(٤٥) جارشلي ، المصدر السابق ، ص١٦٤ .

(٤٦) البلادي ، المصدر السابق ، ج٣ ، ص٥٦٤ .

(٤٧) مردم بك ، المصدر السابق ، ص١٣٦ .

(٤٨) البلادي ، المصدر السابق ، ج٣ ، ص ص٥٦٣-٥٦٥ ؛ السباعي ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص٤٦٣ .

(٤٩) وهي المعاهدة التي وقعتها كلاً من بريطانيا وروسيا والنمسا وبروسيا في ١٥ تموز ضد محمد علي والتي جاءت بنودها كالآتي أنهُ إذا خضع محمد علي في مدة عشرة أيام وأرجع كريد والأماكن المقدسة ببلاد العرب وأضنة والشام أعطته الدولة العثمانية ولاية مصر وراثية وولاية عكا مدة حياتهِ وإلا أخضعتهُ الدولة بالقوة ونظرت في أمرهِ من جديد . في البداية رفض محمد علي العرض عند ذلك ذهبت أساطيل الدول الموقعة للمعاهدة لسواحل الشام واستولت عليها عندها اضطر ابراهيم باشا بن محمد علي الى الانسحاب من الشام ولبنان وأصدر الباب العالي قراراً بعزل محمد علي . إلا أن (نابيير) قائد الأساطيل (للدول الأوربية) ذهب الى الاسكندرية مهدداً واجبر محمد علي على التنازل عن سوريا مقابل الحصول من الباب العالي على الوراثة في حكم مصر وقد كانت الدولة العثمانية في بداية الأمر لا توافق على هذه الاتفاقية إلا بعد فترة وافقت وأصدرت في ١٣ شباط ١٨٤١ فرماناً بذلك . ينظر : محمد صبري ، تاريخ مصر من محمد علي الى العصر الحديث ، (القاهرة : ١٩٩١) ، ص ص٧٦-٧٧ ؛ إلياس الأيوبي ، تاريخ مصر في عهد الخديوي اسماعيل باشا من سنة ١٨٦٣ الى سنة ١٨٧٩ ، (القاهرة : ١٩٩٠) ، مج١ ، ص ص٣٦٩-٣٧٣ ؛ محمد رفعت ، تاريخ حوض البحر المتوسط وتياراتهِ السياسية ، (القاهرة : د.ت) ، ص٧٤ ؛ علي محمد محمد الصلابي ، الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط ، (القاهرة : ٢٠٠٤) ، ص٤٤٠ ؛ اسماعيل أحمد ياغي ومحمود شاكر ، تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر ، ط٤ (الرياض : ٢٠٠٦) ، ج٢ ، ص٢٢ ؛ فاضل بيات ، الدولة العثمانية في المجال العربي ، (بيروت : ٢٠٠٧) ، ص٤٢٧ ؛ سينويه ، المصدر السابق ، ص ص٥٨١-٥٨٣ .

(٥٠) أكمل الدين إحسان أوغلي ، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة ، ترجمة صالح سعداوي ، (استانبول : ١٩٩٩) ، ج١ ، ص ص١٠١-١٠٢ .

(٥١) جارشلي ، المصدر السابق ، ص١٦٢ .

(٥٢) المصدر نفسه ، ص ص١٦٣-١٦٤ .

(٥٣) حراز ، المصدر السابق ، ص١٠٨ .

(٥٤) جارشلي ، المصدر السابق ، ص١٦٩ .

(٥٥) المصدر نفسه ، ص ص١٦٩-١٧٠ .

(٥٦) محمد أسعد طلس ، تاريخ الأمة العربية عصر الانبعاث ، (بيروت : ١٩٦٣) ، ص١٩ .

(٥٧) جارشلي ، المصدر السابق ، ص١٧٠ .